

## فنّ المقابلة

دکتر سید خلیل باستان

استادیار دانشکدهٔ الهیات دانشگاه شهید چمران اهواز

### المقابلة

لقد استوفى الكلام ابنُ أبي الحديد في بحثه الفريد (فنّ المقابلة) من حيث التقسيم المنطقيّ للموضوع؛ و بيان أجزائه المترتبة عليه، مشفعا "كلامه بشواهد قرآنيه و نبويّة و علويّة و شعريّة و من شعر الشعراء، و لم أجد أحداً من العلماء قام بإداء حقّ الحث و التنقيب كابن أبي الحديد، و لكنك ترى شتات كلام هنا و هناك نشيرُ الى بعضها لما فيه من دقائق الفكر لأصحاب النظر: أوّلاً: تعريف المقابلة: قال السكاكي<sup>١</sup> (هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، و بين ضيدهما، ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده كقولهِ عزّ و علا: (فأما من أعطى واتقى و صدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى و أمّا من بخل و استغنى و كذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى) (الليل/ ١٥)، لما جعل التيسير مشتركاً بين الاعطاء و الائتفاء و التصديق جعل ضده و هو التعسير مشتركاً بين أصداد تلك، و هي المنع و الاستغناء و التكذيب.)

ثانياً: استعمالها و شرطها: قال ابن رشيق: (أصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطي أوّل الكلام ما يليق به أوّلاً، و آخره ما يليق به آخراً، و يأتي في الموافق بما يوافقهُ، و في المخالف بما يخالفهُ. و أكثر ما تجيء المقابلة في الأصداد، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة. مثال

١- ابو يعقوب السكاكي / مفتاح العلوم / دار الكتب العلمية ص ١٧٩، و قال ابن قيم الجوزية ص ١٦٦ في الفوائد المشوّق الى علوم القرآن: والذي اختاره العلماء المتقدمون في هذا الفن أن المقابلة ذكر النبي مع ما يوازيه في بعض صفاته و يخالفه في بعضها.

ذلك ما أشده قدامة لبعض الشعراء، و هو:

فيا عجباً كيف أتفقنا فناصح  
وفيء و مطوئى على الغل غادر

فقابل بين النصح والوفاء، بالغل والغدر)<sup>۱</sup>

و شرطه التقديم و التأخير، ولكن قدامة لايبالي، وهكذا اشترطه التفتازاني.

و منه قوله تعالى: (إنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (سبأ/ ۲۴) ثم أدخله التفتازاني في الطبايق، وجعله السكاكي قسماً برأسه، وقال التويري: إنها أعم من الطبايق، وذكر بعضهم أنها أخص.

ثالثاً: رأي ابن أبي الحديد<sup>۲</sup> (ج ۱: ۱۵۰ - ۱۵۲):

المقابلة: نكتة جيدة من علم البيان<sup>۳</sup>، ونحن نذكر فيها أبحاثاً نافعة، فنقول:

إما أن يقابل الشيء ضده أو ما ليس بضده، فالأول كالسواد والياض و هما قسمان

أحدهما مقابلة في اللفظ و المعنى، و الثاني مقابلة في المعنى لا في اللفظ.

أنف: أمّا الأول: فكقوله تعالى: «فليضحكوا قليلاً» و ليكوا كثيراً» (التوبة/ ۸۲)، فالضحك ضد البكاء، و القليل ضد الكثير، و كذلك قوله تعالى: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم» (الحديد / ۲۳)، و من كلام النبي ﷺ خير المال عين ساهرة لعين نائمة، و من كلام أمير المؤمنين ﷺ لعثمان: إن الحق ثقيل مرى و إن الباطل خفيف و بي، و أنت رجل إن صدقت سخطت و إن كذبت رضيت، و كذلك قوله ﷺ لما قال له الخوارج: لا حكم إلّا لله، كلمة حق<sup>۴</sup> أريد بها باطل،\* و قال الحجاج لسعيد بن جبیر لما أراد قتله: ما اسمك؟ فقال: سعيد بن جبیر. قال: شقي بن كسير.

نقدابن الا :

وقال ابن الاثير في كتابه المسمى بالمثل السائر، إن هذا النوع من المقابلة غير مختص بلغة العرب، فإنه لما مات قياد أحد ملوك الفرس قال و زيره: حركنا بسكونه، و في أول كتاب الفصول لبقرات في الطب: العمر قصير و الصناعة طويلة و هذا الكتاب على لغة اليونان.

قلت: أي حاجة به الى هذا التكلّف و هل هذه الدعوى من الامور التي يجوز أن يعترى

۱- ابو علي الحسن ابن رشيق / العدة / ط ۴ / بيروت / دارالجيل / ۱۹۷۲ / ج ۲ / ص ۱۵.

۲- قال ابن أبي الحديد في الجزء ۳ ص ۲۰۵: والعجيب من فصاحته (ع) في ضمن حكمته كيف أعطى كل لفظة من هذه اللفظات ما يناسبها و يليق بها، فأعطى المتباعدات لفظة مقرب لأن / بعد بازاء القرب، و أعطى المتباينات لفظة مقارن، لأن البيوت بازاء المقارنة، و أعطى المتعاديات لفظة مؤلف، لأن الالتفات بازاء التعادي.

۳- يقصد به البديع.

الشكُّ و الشبهة فيها لِيَأْتِي بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتجُّ بها؟ أليس كلُّ قبيلة و كلُّ أمة لها لغة تختصُّ بها؟ أليست الألفاظ دلالات على ما في الأَنفس من المعاني؟ فإذا خطر في النفس كلامٌ ينضمُّن أمرين ضدَّين فلا بدَّ لصاحب ذلك الخاطر سواء كان عربيًّا أو فارسيًّا أو حبشيًّا أن ينطق بلفظ يدلُّ على تلك المعاني المتضادة، و هذا أمرٌ يعمُّ العقلاء كلَّهم، على أن تلك اللفظة التي قالها، ما قيلت في موت قباد، و إنَّها قيلت في موت الاسكندر لما تكلمت الحكماء و هم حولَ تابوته، ممَّا تكلموا به من الحكم.

و ممَّا جاء من هذا القسم من المِقابله في الكتاب العزيز قوله تعالى في صفة الواقعة: خافضة رافعة (الواقعة: ٢) لأنَّها تخفض العاصين و ترفع المطيعين و قوله تعالى: «فصرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة و ظاهرة من قبله العذاب» (الحديد / ١٣)، و قوله: «اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين» (المائدة / ٥٤).

و من هذا الباب قول النبي ﷺ للانصار: إنكم لتكثرون عند الفزع و تقملون عند الطمع.

و ممَّا جاء في اشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير:

يستيقظون الى نهيق حميرهم      و تنام أعينهم عن الأوتارِ

و قال آخر:

فلا الجودُ يُفني المالَ و الجدُّ مقبلٌ      ولا البخلُ يُبقي المالَ و الجدُّ مدبرٌ

و قال ابو تمام:

ما إن ترى الأ حسابَ بيضا و ضحا      إلَّا بحيث ترى المنايا سودا\*  
شرف على اولي الزمان و أتما      خلق المناسب ما يكون جديدا

و إمَّا القسم الثاني من القسم الاوّل:

و هو مقابلةُ الشيء بضده بالمعنى لا باللفظ فكقول المقنع الكندي:

لهم جُلٌّ مالي إن تتابع لي غنى      و إن قلَّ مالي لا أكلفهم رفا

فقوله إن تتابع لي غنى في قوة قوله إن كثر مالي، و الكثرة ضدُّ الذلَّة، فهو اذن مقابل بالمعنى

لا باللفظ بعينه و من هذا الباب قول البحتري:

تفيض لي من حيث لا أعلم النوى      ويسرى اليّ الشوق من حيث أعلم

فقوله لا أعلم ليس ضدًّا لقوله أعلم، لكنه نقيض له، و في قوة قوله أجهل، و الجهل ضدُّ

العلم، و من لطيف ما وقعت المِقابله به من هذا النوع قول أبي تمام:

بها الوحشُ إلَّا أن هاتا أوانس      قنا الخطِ إلَّا أن تلك ذوابل

فقابل بين هاتا و ين تلك، و هي مقابلةٌ معنويَّة لا لفظية، لأن هاتا للحاضرة و تلك للغائبة،

والحضور ضد الغيبة.

باء: و أمّا مقابلة الشيء بما ليس بضده:

فأمّا إن يكون مثلاً أو مخالفاً:

فالأول: على ضربين مقابلة المفرد بالمفرد، و مقابلة الجملة بالجملة، مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى: «نساء الله فأنساهم أنفسهم» (الحشر / ١٩)، و قوله: «و مكروا مكراً و مكروا مكراً» (النمل / ٥٠)، هكذا قال نصر الله بن الأثير، قال و هذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جواباً كما تقدّم من الآيتين، و كقوله: و جزاء سيئة سيئة مثلها، و قوله: و من كفر فعليه كفره، قال: و قد كان يجوز أن يقول: من كفر فعليه ذنبه، لكن الاحسن هو إعادة اللفظ، فأمّا إذا كان غير جواب لم يلزم فيه هذه المراعاة اللفظية، بل تقابل اللفظة بلفظة تفيدها معناها، و إن لم تكن هي بعينها نحو قوله تعالى: «ووفيت كل نفس ما عملت» (الزمر / ٧٠) «و هو اعلم بما يفعلون» (البقرة / ٣٠)، فقال: يفعلون و لم يقل يعملون، و كذلك قوله تعالى: «منهم، قالوا: لا تخف» (هود / ٧٠)، و لم يقل: قالوا لا تفرح، و كذلك قوله تعالى: «إنما كنا نخوض و نلعب قلّ أبالله و آياته و رسوله كنتم تستهزون» (التوبة / ٦٥)، و لم يقل كنتم تخوضون و تلعبون، و قال نحو ذلك من الآليات الشعرية قول أبي تمام:

بسّط الرجاء لنا برغم نوائب  
كثرت بهنّ مصارعُ الآمالِ

فقال: الآمال عوضاً الرجاء قال أبو الطيب:

إنّي لأعلمُ و التليّبُ خبيرٌ  
إنّ الحياةَ و إنّ حرصتُ غرورُ

فقال خبير و لم يقل عليم، قال: و إنّما حسن ذلك لأنّه ليس بجواب و أنّي هو كلام مبتدأ، قلتُ الصحيح: إنّ هذه الآيات و هي قوله تعالى: «نساء الله فأنساهم أنفسهم» و ما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها و أنّها نوع آخر لو سميت المماثلة أو المكافأة، لكن أولى، و الدليل على ذلك أنّ هذا الرجل حدّ المقابلة في أوّل الباب الذي ذكر هذا البحث فيه، فقال: إنّها ضدّ التجنيس، لأنّ التجنيس أن يكون اللفظ واحداً مختلف المعنى، و هذه لا بدّ أن ينضمّن معنيين ضدّين، و إنّ كان التضادّ مأخوذاً في حدّها فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة، و كانت نوعاً آخر، و أيضاً فإن قوله تعالى: «و مكروا و مكر الله»، ليس من سلك الآيات الأخرى بالنساء، و الفاء جواب و الواو ليست بجواب،<sup>٣</sup> و أيضاً فإذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ما ذكره هذا الرجل مطرداً، قال تعالى: «أما من استغنى فإنت له تصدّي، و أمّا من جاء يسعياً و هو يخشى فإنت عنه تلقى» (عبس / ١٠)، فلم يقل في الثانية، و أمّا من جاء يسعياً و هو فقير، و قال تعالى: «فأمّا من أعطى و اتقى و صدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى و أمّا من بخل و استغنى و كذب بالحسنى فسنيسره للعرى» (الليل / ١٠)، فتقابل بين أعطى و بخل و لم يقابل بين اتقى و استغنى<sup>(١)</sup>، و هذا في القرآن العزيز

كثيراً، وأكثر من الكثير، وقد بان الآن إن التقسيم الأول فاسد، وإنه لا مقابلة بين الاضداد وما يجري مجراها.

وإنما مقابلة الجملة بالجملة:

في تقابل المماثلين، فإنه إذا كانت أحدهما معنى وقعت المقابلة، والاعلم أن تقابل الجمل الماضية بالماضية، والمستقبلية بالمستقبلية وقد تقابل الجملة الماضية بالمستقبلية، فمن ذلك قوله تعالى: «قل إن ضللت فأنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي إليّ ربي» (سبا / ٥٠)، فإن هذا تقابل من جهة المعنى لأنه لو كان من جهة اللفظ لقال وإن اهتديت فأنما أهتدي لها، ووجه التقابل المعنوي هو أن كل ما على النفس فهو بها أعني كل ما هو عليها وبال وضرر فهو منها و بسببها لأنها الأمانة بالسوء، وكل ما لها ممّا يدفعها فهو بهداية ربّها و توفيقه لها و من ذلك قوله تعالى: «أولم يروا أنا جعلنا الليل ليكنوا فيه و النهار مبصراً (يونس / ٦٧)، فإنه لم يراع التقابل اللفظي و لو راعاه لقال و النهار ليصروا فيه، وإنّما المراعاة بجانب المعنى؛ لأنّ المعنى مبصراً ليصروا فيه طرق التقلب في الحاجات.

الثاني: و إنّما مقابلة المخالف:

فهو على وجهين أحدهما أن يكون بين المقابل والمقابل نوع مناسبة و تقابل كقول القائل:  
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً و من أساءة أهل سوء إحساناً  
فقابل الظلم بالمغفرة و هي مخالفة له ليست مثله و لا ضده، و إنّما الظلم ضدّ العدل، إنّه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينهما و بين الظلم، و نحو هذا قوله تعالى: «أشداء على الكفار رحماءً بينهم» (الفتح / ٢٩)، فإنّ الرحمة ليست ضدّاً للشدة و إنّما ضدّ الشدة اللين؛ إنّ أنّه لما كانت الرحمة مسبباً للين حسنت المقابلة بينهما، و بين الشدة، و كذلك قوله تعالى: «إن حسنة تسوهم و <sup>صلوات</sup> إن مصيبة يقولوا...» (التوبة / ٥٠)، فإن من السيئة فالتقابل ههنا من جهة العموم و الخصوص.

الوجه الثاني:

ما كان بين المقابل و المقابل بعد، و ذلك ممّا لا يحسن استعماله كقول امرأة من العرب لأبنتها و قد تزوج بامرأة غير محمودة:

تربص بها الايام على صروفها	سترمي بها في جاحم متسعر
فكم من كريم قدمنا الهه	بمذمومة الاخلاق واسعة الحر

فمذمومة ليست في مقابلة واسعة، ولو كانت قالت بضيقه الاخلاق كانت المقابلة صحيحة و  
الشعر مستقيماً، وكذلك قول المتنبي:

لَمَنْ تَطَلَّبَ الدُّنْيَا إِذَا تَمَّ تَرْدُ بِهَا      سرورَ محبٍّ أو مساءةَ مجرم

فالمقابلة الصحيحة بين المحبِّ و المبغض لابين المحبِّ و المجرم، قلتُ إنَّ لقائل أن يقول  
هذا، قلتُ في هذا ما قلت في السيئة و المصيبة، أليست القائل إنَّ التقابل حسن بين المصيبة و  
السيئة، لكنَّه تقابل العموم و الخصوص و هذا الموضع مثله أيضاً لأنَّ كلَّ مبغض لك مجرم إليك،  
لأنَّ مجرد البغضة جرم ففيهما عموم و خصوص بل لقائل أن يقول كلَّ مجرم مبغض و كلَّ  
مبغض مجرم و هذا صحيح مطرد.

رابعاً: تقسيم المقابلة من حيث العدد: (١)

و قد ذكر بعضُ أئمة هذا الفن تفصيلاً في عدد المقابلة فقال:

١- فمن مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى: «فبيضحكوا قليلاً و يبكوا كثيراً» (التوبة / ٨٢)، و قول

النايعة:

تَمَّ فِيهِ مَا يُسِرُّ صَدِيقَةً      على أن فيه ما يسوء الأعدايا  
٢- و من مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر:  
ما أحسنُ الدين و الدنيا إذا اجتمعا      وأقبحُ الكفر و الافلاس بالرجل

وقول أبي نواس:

أنا استدعيتُ عفوك من قريبٍ      كما استعفيتُ بخطك من بعيدٍ  
٣- و من مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: «فأما من أعطى و اتقى و صدق بالحسنى فسيره ليسرى  
وأما من بخل و استغنى و كذب بالحسنى فسيره للعسرى» (الليل ١٠ /)، المقابل بقوله تعالى: استغنى  
قوله تعالى: و اتقى، لأنَّ معناه: زهد فيما عند الله و استغنى شهوات الدنيا عن نعم الآخرة، و ذلك  
يتضمنُ عدم التقوى، و منه قول النايعة:

إذا وطئاً سهلاً أثاراً عحاجةً      وإنَّ وطئاً حزنناً تشظيَّ الجنادلُ

٤- و من مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبي:

أزورهم و سوادُ الليل يشفعُ لي      وأنثني و بياضُ الصبح يُغري بي  
قابل أزور بأنثني، و سواد بياض، و الليل بالصبح، و يشفعُ بيغري، ولي بقوله: بي  
وجاء خلال الشرح      إشارة الى خمسة موارد من المقابلة فنشير إليها:

تطبيق على المقابلة:

١- قوله ﷺ: أحى قلبك بالموعظة وأمتُ بالزهادة (ذ: ٣١)، ثم أتى بلفظتين متقابلتين، وذلك من لطيف الصنعة، فقال: أحى قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة:

يادارُ غادري جديدٌ بلاكِ رثُ الجديد فهل رثيتِ لذاكِ

٢- وجاء ج ٢، ص ١٤٤، خ ٩١، ولما قال: بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقائق مفاصلهم، فاوقع التلاحم في مقابلة، التباين صناعة وبداعاً.

٣- وجاء ج ١٣، ص ٣٣، خ ١٩٢ قوله ﷺ: ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر ورضي لهم التواضع، التكابر: التعاضم، والغرض مقابلة لفظة التواضع لتكون الالفاظ مزدوجة في قوله ﷺ: ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر ورضي لهم التواضع.

٤- قوله ﷺ: اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبتكم وأسألوه من أداء حقه ما سألكم الاعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألكم أي كما ألزمهم وافترض عليهم فسمي ذلك سؤالا لأجل المقابلة بين اللفظين، كما قال سبحانه «جزاء سنة سينة مثلها»، وكما قال النبي ﷺ: فإن الله لا يحلّ حتى تملّوا وكما قال الشاعر:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهلُ فوقَ جهلِ الجاهلينا

٥- قوله ﷺ: فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه (خ: ٢٢٢).

وأوقع لفظ التجارة في مقابله لفظ البيع، اذ لأنه أورد بالتجارة ما هنا الشراء خاصة، أو لأنه عمم بالتجارة والمشملة على البيع والشراء ثم خصّ البيع لأنه أدخل في باب الإلهام لأن البيع يحصل برحه يقيين وليس كذلك الشراء.

ثم يستشكل عليه في المورد التالي، حيث ذكر أنها من المقابلة وليس كذلك إذ أنّهما من باب الطباق وإليه أقرب.

قوله ﷺ: والتاركون المأخوذ منهم (خ: ١٧٥)، قال: والتاركون أي يتركون الواجبات ثم قابل ذلك بقونه والمأخوذ منهم لأن الأخذ في مقابلة الترك، وكما ترى الاستدلال الى الطباق أقرب منه الى المقابلة.

نتیجه البحث:

من خلال التحقیق توصلنا الى:

١- المقابلة اجتماع شتين على الاقل و ضاهما في جملة، و الافهى الطبايق، كما صرح بذلك السكاكي و ابن رشيق و ابن ابى الحديد الذى يقول: و هذه (المقابلة) لا بد ان ينضمّن معنيين ضدين.

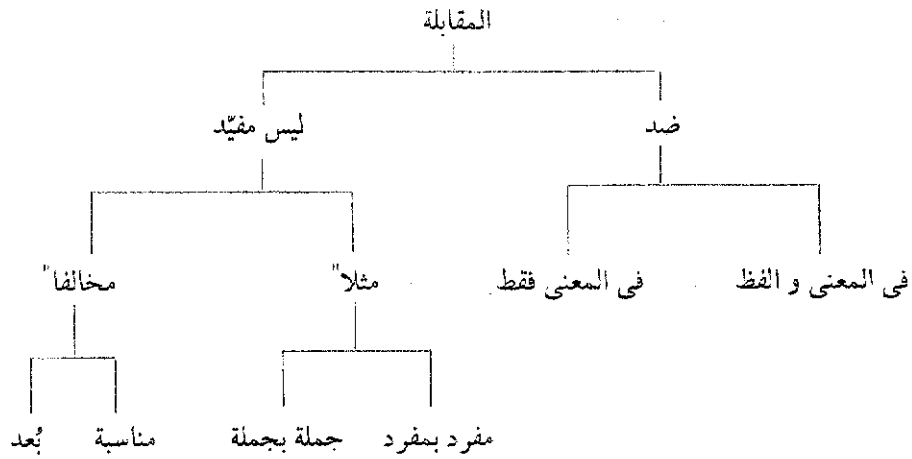
٢- لا يعتبر ابن ابى الحديد [النفي] من الاضداد، حيث يقول في بيانه (لا أعلام)، ليس ضداً لقوله: أعلم، لكنه نقيض له، و في قوة قوله أجهل، و الجهل ضد العلم).

٣- انه واسع المعرفة دقيق النظرة كما نراه في نقده لايق الاثير.

٤- أراه لقد أخطأ في عرض بعض النماذج و الامثلة التي أشرنا اليها بالنجمة

(\*) خلال البحث.

٥- و خلاصة رأى ابنا الحدى في فنّ المقابلة كما يلي





### المصادر

- ١- ابن أى الحديد / عبد الحميد / شرح نهج البلاغة / مصر / دار الكتب العربية / ١٣٢٩ هـ
- ٢- ابن قيم الجوزية / الفوائد الشوق الى علوم القرآن: / بيروت / عالم الكتاب
- ٣- ابن رشيق / ابو على الحسن / العمدة / ط ٤ / بيروت / دار الجيل / ١٩٧٢ م.
- ٤- السكاكي / يوسف ابن ابى بكر / مفتاح العلوم / بيروت / دار الكتب العلمية
- ٥- عبد الباقي / محمد فؤاد / المعجم المفهرس / القاهرة دار الكتب المصرية / ١٣٦٤ هـ
- ٦- النويرى / أحمد / عفاية الأرب / مصر / وزارة الارشاد و المصرية.